الهمزة في كتاب سيبويه
دراسة لهجية

أ. د. كمال محمد المهدي
الأستاذ بكلية التربية للبنات بالمدينة المنورة
قسم الدراسات الإسلامية

الهمزة في كتاب سيبويه
دراسة لهجية

أ. د. كمال محمد المهدي

لقد شاع في دنيا العلم، أن علماء العربية عامة، وعلماء النحو خاصة، قد أهملوا الحديث عن اللهجات العربية القديمة، اللهم إلا نتفاً مبعثرة هنا وهناك، ومن ثم وليت وجهي شطر كتب التراث، لأرد على تلك الدعوى المزعومة، ونشدت ضالتي في دستور العربية الأول، ألا وهو:

«كتاب سيبويه» ت (٣٨) إمام النحاة، وما هي إلا جولة فاحصة في هذا الدستور حتى بدا لي واضحاً. دون أدنى ريب، أن اهتمام سيبويه باللهجات العربية لا يقل عن اهتمامه بالفصحى، حتى ليذهب بنا الظن أن الفصحى عنده هي اللهجات نفسها، فنطق القبائل العربية على اتساع بيئاتها وتباين منازلها، يعد في نظره وحدة واحدة، تدرس جميعاً لاستنباط القواعد منها يقوي هذا، تلك الوجوه العديدة التي نجدها للمسألة الواحدة، ولكل وجه توجيه وتعليل.

من هذا المنطلق عقدت العزم على اختيار هذا الكتاب ليكون مادة للرد على تلك الدعوى المزعومة، ولكن طبيعة البحث في هذا الكتاب اقتضت أن تكون الردود في أبحاث منفصلة، نظراً لتنوع المادة اللغوية فيه، ورغم الصعاب التي تكتنف هذا الكتاب في هذه الناحية لاسيما إذا علمنا أن طريقة سيبويه في عرضه للهجات تتمثل في صورتين:

(١) المواضع التي صرح فيها بذكر أصحاب اللهجات، وقليلة ما هي.

(٢) المواضع التي لم يذكر فيها أصحاب اللهجات، بل تركها غفلاً.

فإنني لم أتراجع عن اختيار هذا الكتاب ليكون مادة لتلك الدراسة اللهجية، مستعيناً بالذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وفي الوقت نفسه جعلت أول رد لي عن مبحث «الهمزة» التي تعاورتها آراء القدامى والمحدثين من نواح عديدة.

هذا ويتضمن البحث في الهمزة من الناحية اللهجية أمرين هما:

(١) الهمزة الأصلية.

(٢) الهمزة غير الأصلية.

وقبل الحديث عن الهمزة في كتاب سيبويه من الناحية اللهجية، لابد من إعطاء القارئ لمحة موجزة عن الهمزة من الناحية التاريخية والصوتية (صفةً ومخرجاً).

فالهمزة أحد الأصوات الصامتة وقد شاع في اللغة العربية واعترف به كصوت أساسي فيها، وذلك «لثبوته في النطق قبل الرسم الذي هو اصطلاح وتواضع»[١].

وقد سميت الهمزة بهذا الاسم «لأنها تهمز فتهت، فتهمز عن مخرجها، يقال: هويهت هتاً إذا تكلم بالهمزة»[٢].

وعلى الرغم من الاعتراف به كصوت أساسي ووضعه أول الحروف في الأبجدية العربية إلا أنه لم يحظ برسم خاص، قياساً على جميع الأصوات الصامتة، ولعل ذلك راجع إلى تطوره إلى صورة أخرى بالتخفيف، فيصير إلى الألف أن سكن وسبق بفتح نحو: راس في رأس، ويصير إلي الياء إن سكن وسبق بكسر نحو: بير في بئر، ويصير إلى الواو إن سكن وسق بضم نحو: مومن في مؤمن، وقد تسهل وتخفف، ولهذا لم يرمز لها برمز يخصها «والرمز الذي نعرفه الآن للهمزة حديث بالنسبة للرسم العثماني»[٣].

يقول ابن منظور فيما رواه عن الأزهري: «اعلم أن الهمزة لا هجاء لها، إنما تكتب مرة ألفاً، ومرة واواً والهمزة كالحرف الصحيح، غير أنها لها حالات من التليين والحذف والإبدال والتحقيق»[٤].

وقد اختلف اللغويون في مخرج هذا الصوت كما اختلفوا في صفاته، فالقدماء لهم رأيان مشهوران في الموضع الذي يخرج منه الهمزة:

الأول: رأي الخليل ومن سار على طريقته، فهؤلاء يرون أن مخرج هذا الصوت الهواء أو الجوف، ولم يقتصروا على ذلك بل جمعوها مع حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء) ونسبوها جميعاً إلى هذا المخرج، الذي سموه الهواء تارة، والجوف تارة أخرى، يقول الخليل بن أحمد «وأربعة أحرف هوائية: الواو والياء والألف اللينة، والهمزة»[٥].

ثم يواصل كلامه فيقول: «فأما الهمزة فسميت حرفاً هوائياً لأنها تخرج من الجوف، فلا تخرج في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف)[٦].

ويقصد الخليل ومن لف لفه، أن الهواء يخرج معها حراً طليقاً دون اعتراض حال النطق بها وفي ضوء معطيات الدراسات الصوتية الحديثة نجد أن الخليل قد جانب الصواب في جملة ما قاله عن مخرج الهمزة، من ناحية وضعها، وموضع نطقها، لأن الهمزة ليست هوائية بالمعنى المذكور إذ الهواء مع الهمزة يقابل باعتراض تام في منطقة الحنجرة)[٧] كما أنه ليس من الصحيح وضع الهمزة مع حروف المد، لأنها صوائت طويلة، على حين أن الهمزة صوت صامت.

وعلى ذلك، فيصح وصف الحروف الثلاثة الألف والواو والياء، بالهوائية دون الهمزة، هذا ويمكن تعليل الخطأ الذي وقع فيه الخليل ومن سايره «بأنه حين نطق بالهمزة ليعرف طبيعتها، لم ينطقها وحدها، وإنما نطقها متلوة بحركة، فبدت له كما لو كان هواؤها حراً طليقاً، وفي الحقيقة أن حرية الهواء، لم تنسب إلى الهمزة ذاتها وإنما تنسب إلى الحركة التي صاحبتها[٨]، أضف إلى ذلك أن الخليل كان مضطرباً في إدراك طبيعة هذا الصوت، وخواصه، ومما يدلنا على ذلك أنه في بعض أقواله ينسب الهمزة إلى أقصى الحلق، فيقول: «وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق»[٩].

الثاني: رأي ابن منظور ومن روى عنهم كالأزهري وسيبويه وابن جني، فهم يرون أن

مخرج الهمزة من أقصى الحلق، وقد ورد في اللسان ما يفيد ذلك فهو يقول «وليست الهمزة من الجوف، إنما هي حلقية في أقصى الفم»[١٠]، أي من أقصى الحلق.

أما اللغويون المحدثون[١١]: فيرون أن مخرج الهمزة هو الحنجرة، بما فيها المزمار إذ وجدوا أنه عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقاً تاماً فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة، فيسمع صوت انفجاري، هو ما يعبر عنه بالهمزة، وعلى ذلك فما ذهب إليه ابن منظور والأزهري، وسيبويه، وابن جني ومن لف لفهم، من أصوات الهمزة ليست حلقية كما قالوا، وإنما هي من الحنجرة، والحنجرة في موضع سابق للحلق، «ولكن يمكن قبول رأيهم بافتراض واحد، وهو أنهم ربما أطلقوا الحلق على منطقة أوسع مما يطلقه المحدثون عليه، تشمل الحنجرة وغيرها، وتكون الحنجرة إذن هي المقصودة بأقصي الحلق»[١٢].

وكما اختلفوا في الموضع الذي تخرج منه الهمزة، كما اختلفوا في صفاته، فالأقدمون كابن منظور وغيره من اللغويين، قد وصفوه بأنه صوت مجهور، وجعلوه أحد الأصوات المجهورة عندهم[١٣] على حين أن بعض المحدثين، قد وصفوه بأنه صوت مهموس، يقول الدكتور أيوب: «وقد عدوا الهمزة مهموسة لعدم تذبذب الأوتار الصوتية معها حال النطق بها»[١٤]، ويقول الدكتور حسان: «تأتي صفة الهمس في الهمزة من أن إقفال الأوتار الصوتية معها، لا يسمح بجود الجهر في النطق فعدوها مهموسة لعدم وجود حالة الجهر»[١٥].

وفي الحقيقة أن صوت الهمزة لا هو بالمجهور - كما يرى الأقدمون - ولا هو بالمهموس كما يرى بعض المحدثين، وصف الهمزة بهذه الصفة وصف سديد لا غبار عليه، لأن الصوت المجهور هو الصوت الذي يهز الوترين الصوتيين، وأن الصوت المهموس، هو الذي لا يهز الوترين الصوتيين، ووضع الوترين الصوتيين، مع نطقنا بالهمزة، لا يمكن وصفه بالاهتزاز أو بعدمه، حتى يتسنى الوصف بالجهر أو الهمس، لأنهما مغلقان إغلاقاً تاماً، فلا اهتزاز ولا مجال لخروج الهواء من بينهما، ومن ثم كان وصف الهمزة بعدم الجهر والهمس وصفاً سديداً»[١٦].

وإذا كانت الهمزة لا هي بالمجهورة ولا هي بالمهموسة - كما يرى بعض المحدثين - فكيف نفسر هذا الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون فيمن وصفوا الهمزة بالصوت المجهور؟

يقول أستاذنا الدكتور بشر في تفسير هذا الخطأ هناك احتمالان لوصفهم الهمزة بالجهر:

الأول: لعلهم وصفوا الهمزة المتبوعة بحركة، فأحسوا الجهر بسبب وجود الحركة، إذ الحركات العربية كلها عادة مجهورة.

الثاني: لعلهم كانوا يصفون الهمزة المسهلة (وهي مما تسمى همزة بين بين) وفي نطق الهمزة المسهلة لا تقفل الأوتار الصوتية إقفالاً تاماً (بخلاف حال نطق الهمزة المحققة) بل يكون إقفالاً تقريبياً، وحينئذ يحدث الجهر حال النطق غير أن المجهور هنا، ليس الهمزة أو الوقفة الحنجرية، ولكنه أشبه بأصوات العلة[١٧].

ونختم حديثنا التاريخي والصوتي للهمزة بكيفية تكوينها، فنقول: يتكون هذا الصوت باندفاع الهواء الخارج من الرئتين عبر القصبة الهوائية، حتى إذا وصل إلى الحنجرة وهي موطن خروجه، تسد فتحة المزمار الموجودة بين الوترين الصوتيين وذلك بانطباق هذين الوترين انطباقاً تاماً، فلا يسمح للهواء بالمرور - ومن ثم وصف بالشدة - ثم تنفرج فتحة المزمار، فيخرج الهواء فجأة وبشدة محدثاً صوتاً انفجارياً هو صوت الهمزة، ونلحظ أن اللسان حال النطق به لا يرتفع إلى أعلى، ولا يتقعر من وسطه بل يكون مسترخياً، ومن ثم وصف بالمستفل والمنفتح، ولما لم يكن أحد أصوات الخفة المعول عليها في تمييز العربي من غير العربي عد هذا الصوت مصمتاً.

فالهمزة إذن صوت شديد أو انفجاري حنجري أو مزماري، لا هو بالمجهور ولا بالمهموس مستفل منفتح مصمت.

المبحث الأول: الهمزة الأصلية:

أدرك سيبويه صعوبة النطق بالهمزة فقال: «واعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا[١٨]

من لم يخففها »[١٩]؛ لأنه يعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر، تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً، فثقل عليهم ذلك، لأنه كالتهوع[٢٠]. ونظراً لهذه الصعوبة في النطق كان في الهمزة ثلاثة مذاهب في الأداء، أجملها سيبويه في قوله: «اعلم أن الهمزة تكون فيها ثلاثة أشياء: التحقيق، والتخفيف، والبدل»[٢١]، وسنتناول كل نوع منها على حدة بالتحليل والدراسة:

النوع الأول: تحقيق الهمزة:

ويتضمن الحديث عن تحقيق الهمزة صورتين:

(١) الهمزة المفردة:

(أ) يقول سيبويه: «فالتحقيق قولك قرأت، ورأس وسأل، ولؤم، وبئس وأشباه ذلك».

(ب) ويقول أيضاً: «وحدثني أبو الخطاب، أنه سمع من يقول: (قد أَرآهم) يجيء بالفعل من (رأيت) على الأصل من العرب الموثوق بهم»[٢٢].

فتحقيق الهمزة - كما هو معلوم لدى أهل العلم - هو إعطاؤها حقها ومستحقها من الأداء.

وقد عزا أكثر العلماء، تحقيق الهمزة إلى تميم[٢٣]، يقول عيسى بن عمر: «ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر»، كما عزا تحقيق الهمزة أيضاً إلى تميم الرباب[٢٤] وقيس[٢٥] وجميعهم من القبائل البدوية أو ممن له فروع بدوية.

ونظن أن صوت الهمزة رغم ما يحتاجه أداؤه من مجهود عضلي - يساعد تلك القبائل البدوية على عملية الأداء لأنه يعينها على إبراز مقاطعها، ومن ثم فهو لا يعوق سرعة الأداء، بل قد يكون من الوسائل المؤدية إليها. لهذا حرص عليه البدو[٢٦].

المبحث الثاني: الهمزتان المتجاورتان:

(أ) في كلمة واحدة: يقول سيبويه «واعلم أن الهمزتين إذا التقتا في كلمة واحدة، لم

يكن بد من بدل الآخر ولا تخفف، لأنهما إذا كانتا في حرف واحد لزم التقاء الهمزتين الحرف..... فمن ذلك قولك في فاعل من (جئت) جائ) أبدلت مكانها الياء، لأن ما قبلها مكسور، فأبدلت مكانه الحرف الذي منه الحركة التي قبلها »[٢٧].

إذن فالعرب - كما يرى سيبويه - تتفق في إحلال صوت محل الهمزة الثانية من الهمزتين المتجاورتين في كلمة مثل قولهم: آدم في أدم، أبدلوا مكنها الألف، لأن ما قبلها مفتوح، ولكن قراء الكوفة ابن عامر قد حققوا الهمزتين في قوله تعالى: ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر**﴾[٢٨].

(ب) في كلمتين: يقول سيبويه واعلم أن الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة فإن أهل التحقيق يخففون إحداهما، ويستثقلون تحقيقهما، لما ذكرت لك[٢٩] كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة، فليس من كلام العرب، أن تلتقي همزتان فتحققا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى، وتحقيق الآخرة، وهو قول أبي عمرو، وذلك في قوله: ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾[٣٠]، و﴿**يا زكريا إنا نبشرك**﴾[٣١]، ومنهم من يحقق الأولى ويخفف الآخرة، سمعنا ذلك من العرب وهو قولك: ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ و﴿**يا زكريا إنا**﴾[٣٢].

ويقول أيضاً: ومن العرب ناس يدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفاً إذا التقتا وذلك أنهم كرهوا التقاء همزتين ففصلوا، كما قالوا: (آخشينان) ففصلوا بالألف كراهية التقاء هذه الحروف المضارعة، قال ذو الرمة[٣٣]:

فيا ظبية الوعاء بين حلاجل وبين النقا أأنت أم أم سالم

فهؤلاء أهل التحقيق، ومنهم من يقول أن بني تميم هم الذين يدخلون بين الهمزة وألف الاستفهام ألفاً[٣٤]. فسيبويه في النصين السابقين يذكر لأهل التحقيق مذهبين في الهمزتين المتجاورتين في كلمتين وهما:

(١) تخفيف أحدهما، إما الأولى نحو: قوله تعالى: ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ أو الثانية

نحو: قوله تعالى: ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ فبدلاً من أن يوالوا بين توترين، والواو بين توتر طول، وهو اتجاه منهم إلى التماس الرقة في النطق إلى جانب تحقيقهم لخاصتهم النبرية(٣٥).

(٢) إذا كانت إحدى الهمزتين، همزة استفهام، أقحموا بينهما ألفاً، وذلك حرصاً منهم على تحقيق الهمزتين، وقد خصت تميم دون سائر المحققين بهذا العمل.

وهكذا رأينا حرص القبائل البدوية على صوت الهمزة، وإليهم نستطيع أن نعزو قول سيبويه، (وبعض العرب يقول (أوكل) فيتم، وقوله (وقال بعضهم: أومر) إذا كان حققت الهمزة الأولى وخففت الثانية في كل من المثالين.

الهوامش

(١) المعجم الكبير: ٣/١ أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٢) لسان العرب: ٢٩٤/٧ مادة (همز) لابن منظور.

(٣) الأصوات اللغوية: ٨٩، د: أنيس، ط: ٥٠، وقارن بالتجويد والأصوات: ٦٩، د: نجا، مطبعة السعادة بمصر.

(٤) اللسان: ٢١/١ من المقدمة، ط: دار الشعب، وتهذيب: ٦٨٢/١٥ للأزهري، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط: الكتاب العربي ١٩٦٧م.

(٥) العين: ٦٤/١ للخليل بن أحمد تحقيق د: عبدالله درويش، مطبعة العاني، بغداد.

(٦) العين: ٦٤/١ للخليل بن أحمد تحقيق د: عبدالله درويش، مطبعة العاني، بغداد.

(٧) علم اللغة العام: الأصوات: ١٤٤/١، د: بشر.

(٨) المصدر السابق.

(٩) العين: ٥٨/١.

(١٠) اللسان: ١٠/١، التهذيب: ٦٨٢/١٥، الكتاب: ٤٣٣/٤.

(١١) الأصوات اللغوية: ٩٨ د. أنيس، علم اللغة العام (الأصوات) ١٤٢ د. بشر، البحث اللغوي عند العرب: ٥٨/ د. عمر.

(١٢) علم اللغة العام (الأصوات): ٤٦/ د. كمال بشر.

(١٣) اللسان: ٧/١، الكتاب: ٤٣٤/٤، سر الصناعة: ٦٩/١-٧٨.

(١٤) أصوات اللغة: ٨٤/د. أيوب، ط: الثانية، مطبعة الكيلاني ١٩٦٨م.

(١٥) مناهج البحث في اللغة: ٧٩/ د. تمام حسان، مكتبة الأنجلو.

(١٦) علم اللغة (مقدمة القارئ العربي): ١٧١ د. السعران، الأصوات اللغوية: ٨٩، د. أنيس، دراسات في علم اللغة: ٩٣، د. بشر.

(١٧) دراسات في علم اللغة: ١١٥-١١٦ د. بشر.

(١٨) يقصد الحذف الذي تحدث عنه في نص سابق لهذا النص.

(١٩) أي يجعلها بين بين.

(٢٠) الكتاب: ٥٤٨/٣.

الهوامش

(٢١) المصدر السابق: ٣/٥٤١.

(٢٢) المصدر السابق: ٣/٥٤٦.

(٢٣) المصدر السابق: ٣/٤٢، ٥٣٣، النوادر في اللغة: ٥٩٦ لأبي زيد، المذكر والمؤنث: ٢٦١، لأبي بكر الأنباري، شرح المفصل: ٩/١٠٧ لابن يعيش، البحر المحيط: ١/٢٠٤، ٣/٢٣٦، ٦/١٦٣/ لابن حيان، المزهر: ٢/٢٧٦، للسيوطي، الجمهرة: ٣/٢٩٣/. لابن دريد، اللسان: ١/٢٢ لابن منظور، تاج العروس: ١٠/١٤١/ للزبيدي.

(٢٤) اللسان: ١/٢٢.

(٢٥) المصدر السابق: ١٤/٢٩٣، البحر المحيط: ٨/٥١٢.

(٢٦) شرح المفصل: ٩/١٠٧ لابن يعيش.

(٢٧) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: ٣٠/ د. عبدالصبور شاهين.

(٢٨) الكتاب: ٣/٥٥٢.

(٢٩) البحر المحيط: ٥/١٥ لأبي حيان.

(٣٠) التوبة الآية: ١٢.

(٣١) يشير إلى قوله الآنف الذكر وهو: (واعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا من لم يخففها، لأنه يعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر، تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً فثقل عليهم ذلك، لأنهم كالتهوع) الكتاب: ٣/٥٤٨.

(٣٢) سورة محمد الآية: ١٨.

(٣٣) سورة مريم الآية: ٧.

(٣٤) الكتاب: ٣/٥٤٨-٥٤٩.

(٣٥) البيت من الطويل، وقد ورد بهذه الرواية في المقتضب: ١/١٦٣ للمبرد، وشرح المفصل: ١/٩٤ لابن يعيش، وورد في الآمالي: ١/٣٢١ لابن الشجري برواية (يا ظبية)، وشرح شواهد الشافية: ٣٤٧ للبغدادي (أيا ظبية) والشاهد في قوله: (أأنت) حيث أقحم ألفاً بين الهمزتين ليحققهما.

(٣٦) الكتاب: ٣/٥٥١.

* * *